

تفسير ابن كثير

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ^ج وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ
فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه ^ج كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ^ج فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً ^ط وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ^ج كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في

اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى : (أنزل من السماء ماء) أي : مطرا ، (فسالت أودية

بقدرها) أي : أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء ، وهذا صغير فوسع

بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علما كثيرا ، ومنها ما لا يتسع

لكثير من العلوم بل يضيق عنها ، (فاحتمل السيل زبدا رابيا) أي : فجاء على وجه الماء

الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه ، هذا مثل ، وقوله : (ومما يوقدون عليه في

النار) هذا هو المثل الثاني ، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة (ابتغاء حلية) أي

: ليجعل حلية أو نحاسا أو حديدا ، فيجعل متاعا فإنه يعلوه زبد منه ، كما يعلو ذلك زبد

منه . (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أي : إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له ،

كما أن الزيت لا يثبت مع الماء ، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل; ولهذا قال : (فأما الزيت فيذهب جفاء) أي : لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ، ويلقى بالشجر وتنسفه الرياح . وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ، لا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به; ولهذا قال : (وأما ما ينفع الناس فيمكن في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) كما قال تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) [العنكبوت : 43] . قال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي; لأن الله تعالى يقول : (وما يعقلها إلا العالمون) قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : قوله تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) هذا مثل ضربه الله ، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله . وهو قوله : (فأما الزيت فيذهب جفاء) [وهو الشك] (وأما ما ينفع الناس فيمكن في الأرض) وهو اليقين ، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار; فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك . وقال العوفي ، عن ابن عباس : قوله :

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) يقول : احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة (ومما يوقدون عليه في النار) فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد ، فللنحاس والحديد خبث ، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء ، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت . فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله ، والعمل السيئ يضمحل عن أهله ، كما يذهب هذا الزبد ، فكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله ، فمن عمل بالحق كان له ، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض . وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ، ويخرج جيده فينتفع به . كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة ، وأقيم الناس ، وعرضت الأعمال ، فيزيغ الباطل ويهلك ، وينتفع أهل الحق بالحق . وكذلك روي في تفسيرها عن مجاهد ، والحسن البصري ، وعطاء ، وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف . وقد ضرب الله ، سبحانه وتعالى ، في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريا ومائيا ، وهما قوله : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله) الآية [البقرة : 17] ، ثم قال : (أو كصيب من السماء فيه

ظلمات ورعد وبرق) الآية [البقرة : 19] . وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين

، أحدهما : قوله : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) [النور :

39] الآية ، والسراب إنما يكون في شدة الحر؛ ولهذا جاء في الصحيحين : " فيقال لليهود

يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون : أي ربنا ، عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا تردون ؟ فيردون

النار فإذا هي كالسراب يحطم بعضها بعضا " . ثم قال في المثل الآخر : (أو كظلمات

في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) الآية [النور : 40] . وفي

الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : " إن

مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة

قبلت الماء فأنبت الكأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله

بها الناس ، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها [أخرى] إنما هي قيعان

لا تمسك ماء ولا تنبت كأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع

به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " .

فهذا مثل مائي ، وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ،

حدثنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " مثلي ومثلكم ، كمثل رجل استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمهن فيها " . قال : " فذلكم مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار [هلم عن النار ، هلم] فتغلبوني فتقتحمون فيها " . وأخرجاه في الصحيحين أيضا فهذا مثل ناري .